د. هدى الميموني
باحثة وكاتبة مغربية

الثقافة الإسلامية والتربية الحضارية

إن الثقافة التي بصرت الناس بحقيقة الرسالة الإسلامية ومقاصدها، وكونت لديهم القناعة بأحقية الأمة الإسلامية في قيادة الناس كافة، في عصر التيه والاستبداد والفساد الحضاري، هي ثقافة قيادة تمكن الناس من العودة إلى الفطرة السليمة التي فطرهم الله تعالى عليها أول مرة، ومن ثم التخلص من كل ما يشدهم إلى عبادة الأوثان والأهواء، ويقربهم من فضاء الفهم العميق لوظيفتهم في الحياة ومقاصد خلقهم وسبل تحقيق ماهيتهم باعتبارهم أشرف مخلوقات الله جل جلاله، ومن ثم معرفة سبل تحقيق وأداء أمانة الاستخلاف في الأرض وعمارتها العمارة الربانية التي تحفظ آدمية الإنسان وكرامته وتميزه عن باقي المخلوقات الأخرى، مع الأخذ بعين الاعتبار ما للعلاقة الوطيدة بين العقيدة والعمل الصالح من أثر في تحقيق هذه المهمة لتكليفه وإبراز المفهوم الصحيح للمسؤولية التي تعتبر من أهم مكونات الشخصية المسلمة.

تشهد المرحلة الراهنة تحولات ومنعطفات دقيقة، وخطيرة في الوقت نفسه، أملتها طبيعة المسار الحضاري الذي تقطعه الإنسانية جمعاء بموازاة التقدم الكبير الذي تعرفه المعارف والعلوم، خاصة تلك المتعلقة بالوسائل المعلوماتية من جهة، وما لحق بالنظام العالمي من تبدلات على مستوى الزعامات والقيادات، باندثار علاقات الأقطاب وتمركز السيادة والقوة في قطب الليبرالية الجديدة، التي أخذت على عاتقها تحويل مسار الأمم والشعوب في اتجاه محدد يصهر الحضارات والثقافات ويعبد الطريق، بكل الوسائل، لتحقيق المفهوم الليبرالي للعولمة، باعتبارها الوسيلة الجديدة لتصفية كل ما من شأنه الحفاظ على الهوية وتمكين الأمم من اكتساب شروط المنافسة المطلوبة.

من جهة أخرى، فقد استطاعت سياسة العولمة الجديدة اختراق الحصون وترسيخ المفهوم الجديد للعلاقات الدولية وقتل العديد من الشعوب الرافضة لسياسة الهيمنة، ومن ثم تذويب وصهر كل أشكال الانتماء والإحساس بالهوية والذاتية، فأسهمت بذلك في تحقيق نوعين من الأزمات الخطيرة التي تعاني منها الشعوب المستضعفة والمغلوبة على أمرها، والمقصود بذلك، الاستلاب والاغتراب، فقد تمكنت من تحقيق هذه النتيجة -التي نلمسها في حياة كثير من الناس- بفعل عوامل عدة، أسهم في تكوينها ضعف الأمة وتخاذلها وتواطؤ قيادات سياسية مع المشروع الكبير للعولمة والتغريب، فلولا قابليتها لتبني واحتضان الاستلاب والاغتراب ما استطاعت المنظمات الاستعمارية الجديدة تحقيق ما حققته اليوم من نتائج كرست من تقسيم الجغرافية البشرية والاقتصادية، وجددت من استنزاف خيرات الشعوب، التي طالما جاهدت من أجل الحرية والديموقراطية والكرامة والآدمية.

في ظل هذه التحولات تشهد الجغرافية الإسلامية نهضة

ملحوظة للثقافة الإسلامية، نهضة تعكس رغبة جيل جديد من الأمة في نفض غبار مخلفات مرحلة الغفوة التي أضعفت فاعليتها وإنتاجيتها وقدرتها على التعاطي مع تطورات الواقع ومستجداته بالشكل الذي يجعلها غير قادرة على ممارسة وظيفتها في الشهود والإمكان الحضاريين، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار ما تعرفه المجتمعات الراهنة من تقلبات وتحولات سريعة، تحتم علينا أن نكون في مستوى التفاعلات الحضارية الراهنة، وفي مستوى الإسهام في صناعة أحداث التاريخ ومنجزاته، بل صنع القرارات الدولية المطلوبة.

المسلم المعاصر وتبني خيار المواجهة

من هنا يأتي حديثنا عن الثقافة الإسلامية وأثرها في تشكيل الحياة الإسلامية المطلوبة، ذلك أنه حينما تفقد الأمة الإسلامية مقومات هذه الثقافة، تتعرض لكثير من المحن الحضارية وتتلاشى فيها كل القدرات على الإبداع والإنتاج المطلوبين على المستويات كافة، بل تتعرض للجمود الفكري والثقافي والتحولات النفسية السلبية، جراء ما يحدث في نفسية المسلم من صراع ينتج باستمرار من تدافع الأصالة والاستلاب، وما يلحق به من معاناة بسبب ما يحس به من ازدواجية في شخصيته الحضارية، التي تحاول التوفيق بين هويته الأصيلة ومتطلبات الحياة المعاصرة التي تتحكم في رسم تفاصيلها السياسة الدولية.

إن السؤال الذي يمكن طرحه هنا، هو هل نحن فعلا نعيش الثقافة الإسلامية الأصيلة؟ وهل باستطاعة المسلم المعاصر التغلب على المعوقات والعقبات، حتى تحل ثقافته الإسلامية محل الثقافة التغريبية؟ بل إلى أي حد يمكننا الحديث عن ثقافة إسلامية أصيلة معاصرة قادرة على تبني خيار المواجهة والممانعة من جهة، وخيار الشهود الحضاري والإمكان العمراني من جهة أخرى؟ خاصة أن الأمة الإسلامية أمة مكلفة شرعا، بتحقيق الخيرية والشهود على الناس كافة.

إن الحديث عن الثقافة الإسلامية الأصيلة حديث في الأساس عن الثقافة التي صاغها الإسلام، قرآنا وسنة، وذلك لما يتميز به، عقيدة وشريعة، من ميزات وخصائص تجعله قادرا على صياغة وتشكيل حياة المسلم على جميع المستويات، ولا أدل على ذلك مما تعكسه حياة المسلمين في الصدر الأول من الإسلام، الشيء الذي يجعلنا نجزم بأن المفهوم الحقيقي للثقافة الأصيلة لا يتحدد إلا من خلال الرؤية العامة لمنهجية الإسلام في بناء الإنسان والمجتمع معا، بناء يستطيع من خلاله الإنسان امتلاك الأدوات والوسائل المطلوبة لتسخير مكونات الكون من أجل بناء المجتمع الذي يتمثل أفراده مقاصد الشريعة الربانية والقيادة، والذي كان خير مثال على قدرة الإسلام على بناء حياة الإنسان المادية والمعنوية، وتقديم سلوكه وترشيده إلى المسار الصحيح الذي ينبغي أن يسلكه في حياته الخاصة والعامة.

من هنا تتبين العلاقة الموجودة بين الإسلام، عقيدة وشريعة، وبين الثقافة الإسلامية، حيث تستمد هذه الأخيرة مقوماتها الأساسية من الإسلام نفسه، ومن السلوك النبوي المتميز، الشيء الذي يبين كذلك سمة العالمية التي تتميز بها الثقافة الإسلامية كونها خطاب الله عزوجل إلى الناس كافة، مما يعطي للثقافة الإسلامية تميزها عن باقي الأنماط الثقافية الأخرى التي تخص أجناسا محددة وأزمنة محددة وجغرافيات محددة، ولعل في ربانية الشريعة الإسلامية ما يجعل من الثقافة الإسلامية نفسها ربانية المصدر والمنهج والغاية، متى خولت لها القوة على صهر كل الثقافات الإنسانية الوضعية وجعلها ثقافة واحدة، الكل فيها سواسية إلا بالتقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

فالفهم العميق لمفهوم الثقافة الإسلامية لا يتضح بالشكل المطلوب إلا إذا نظرنا إليه من خلال الأهداف العامة للإسلام، عقيدة وشريعة، والتي يمكن تلخيصها وتجميعها في سعي الشريعة الإسلامية إلى تحقيق إعداد الإنسان وتربيته وتهيئته لتحقيق وتمثل المعنى الصحيح لمفهوم الخلافة والاستخلاف في الأرض، حيث تتضح مقاصد هذه الخلافة في عمارة الأرض بالوسائل التي أوضحها وبينها الشرع القويم، لتكون معينا على التفكر في خلق الله تعالى كمدخل لمعرفة حقيقة الوجود ومقاصده التي تجمعها الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦).

الثقافة الإسلامية ثقافة قيادية

إلى جانب ما سبق تستمد الثقافة الإسلامية الأصيلة مقوماتها

-على مستوى السلوك- من المنهج الإسلامي العام الذي حدد لتزكية النفس وتربية الذات، وتقويم السلوك والنيات، كلما أصابهما الانحراف والزيغ، ذلك أن الإسلام شرع لبناء الأخلاق بتفاصيلها، فاستوعب بذلك حياة الإنسان، وقدم نموذجا كاملا لحياته وسلوكه، على مستوى التفكير والتعبير والتدبير، لم تعرفه الفلسفات الإنسانية قط، ولن تعرفه، لأنها حياة وضع منهجها الله جل جلاله وبين تفاصيلها الرسول ﷺ، وتمثلها الصحابة رضوان الله عليهم، فكانت بذلك مستجيبة لمقتضيات الفطرة السليمة والمتوائمة قال تعالى:﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢).

وإذا كان الفهم العميق للمفهوم الصحيح للثقافة الإسلامية لا يتجلى إلا من خلال الفهم العميق للإسلام، جملة وتفصيلا، فإلى أي حد نستطيع تمثل هذا الفهم، في زمن نعيش فيه على وتيرة الغلبة للثقافة الغربية، رغم جهادنا ضد كل أشكالها من جهة، وسعينا بكل ما نملك من قوة نفسية ومادية إلى تمثل قيم الإسلام وتعاليمه من جهة ثانية؟

ذلك أن قولنا إننا أمة إسلامية يقتضي منا البرهنة فعليا على تمثلنا للإسلام، عقيدة وشريعة، فالانتماء إلى الإسلام ومصداقية الحديث عن الثقافة الإسلامية الأصيلة يقتضيان موافقة القول للعمل، ولن يتأتى هذا إلا بتصحيح مفهومنا للإسلام، وإلا فإن صحوة الجيل الجديد من هذه الأمة وتمسكه بالثقافة الإسلامية لن يوصلا إلى الغاية المطلوبة، عناية ببناء الفرد المسلم الذي يكون قادرا على بناء المجتمع المسلم الذي سيكون، بالضرورة نموذجا لبناء مجتمع الإنسان الذي سيتمثل فعلا حقيقة ومقاصد الاستخلاف وعمارة الأرض.

إننا في حاجة إلى تجديد فهمنا للمسار وتبصر العوائق وتصحيح النيات وتقويم السلوك، حتى يكون فهمنا للإسلام مؤسسا على نية الإخلاص لله جل جلاله، وإلا فإننا سنسقط فيما سقط فيه أصحاب الكتب السابقة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ...﴾ (البقرة:٨٥).

أبناؤنا وبناتنا فلذات أكبادنا، ومن حقهم علينا -كآباء وأمهات ومربين ومربيات- إحاطتهم بالرعاية والاهتمام والتربية الصحيحة منذ الصغر حتى ينشأوا نشأة سليمة سوية يقدمون الخير لأنفسهم ولأمتهم، ويكونوا لبنة صالحة في بنيان الوطن، وقد أولى الإسلام قضية التربية والتعليم عناية فائقة منذ نزول الوحي على الرسول محمد ﷺ الذي يعد بحق المربي الأول لأتباعه، بل للبشرية جمعاء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وكانت كلمة أقرأ، وهي أهم مفردات العملية التعليمية، أول ما نزل من الوحي، لقد أدبه ربه فأحسن تأديبه وأنزل عليه الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما.

إن الجهات المسؤولة عن التربية والتعليم، بدءا من الأسرة ومرورا بالمدرسة ومن ثم الجامعة، مطالبة بالاستفادة من منهج الرسول الكريم ﷺ في العملية التربوية والتعليمية من أجل بناء الإنسان المسلم بناء صحيحا متوازنا، وتطوير كفاءاته وتنمية مهاراته وتزويده بشتى أنواع العلوم والمعارف، لأن العلم والتعليم سبيلنا إلى التنمية التي نسعى من خلالها إلى تحقيق سعادة الإنسان المسلم المادية والمعنوية، بما ينسجم مع مقاصد الشريعة في استخلاف الإنسان على سطح الأرض.

ويرى بعض الباحثين أن التربية والتعليم واحد لا فرق بينهما ويرى آخرون أن التعليم أعم وأشمل من التربية، وفي الرأي الحديث أن التربية في مفهومها أعم وأشمل من التعليم لأنها تشمل جوانب شخصية الفرد من السلوك والعاطفة والاتجاهات الأخلاقية وكلها تندرج تحت مفهوم التثقيف أو الثقافية فالثقافة سلوك أولا وأخيرا، الإسلام خلق وسلوك، أما التعليم فقد يكون مقصورا على المعرفة بجانبيها النظري والتطبيقي.

وإذا رجعنا إلى نصوص القرآن الكريم سنجد نصوصا تتحدث عن عملية التربية كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ (الإسراء:٢٤)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (الشعراء:١٨)، ونصوصا أخرى تتحدث عن العمليتين معا التعليم والتربية مما دل على أن العمليتين مرتبطتان ومتلازمتان معا، يقول الله تعالى:﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٢٩).

وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٥١).

العلم والتربية الحضارية

يرى المربون المسلمون ومنهم (الغزالي) أن الدين أساس التربية الخلقية في الإسلام وهذا واضح في قول الغزالي «أيها الولد... كم من ليال أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرمت على نفسك النوم، لا أعلم ما كان الباعث فيه، إن كان مثل عرض الدنيا وجذب حطامها، وتحصيل مناصبها، والمباهات على الأقران والأمثال، فويل لك ثم ويل لك، وإن كان قصدك فيه شريعة النبي ﷺ وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمارة بالسوء، فطوبى لك ثم طوبى لك» وذلك يرجع أن العلم بالله عند المسلمين هو أصل كل علم، وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادتهم إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب، وهو من أنفس ما قضيت فيه الساعات، ومن أغلى ما صرفت فيه الأوقات، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:٩)، وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٣).

وقال معاذ بن جبل، رضي الله عنه: تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وكان عبدالله بن مطرف، رحمه الله، يقول: «إنك لتلقى الرجلين أحدهما أكثر صوما وصلاة وصدقة، والآخر أفضل منه بونا بعيدا». قيل له: وكيف ذاك؟ فقال: «هو أشدهما ورعا لله عن محارمه»، وما ذاك إلا بسبب العلم، فإنه الهادي بإذن الله إلى البصيرة في الدين.

لما كان طلب العلم بهذه الأهمية، كان لابد من مراتب يجدر التنبيه إليها لمن سلك طريقه، وذلك أن كثيرا من طلبة العلم في هذا الزمان يجدون إلى العلم ولا يصلون، ومن منافعه وثمراته يحرمون، لما أنهم أخطأوا طرائقه وتركوا شرائطه، وكل من أخطأ الطريق ضل، فلا ينال المقصود قل أو جل، وما هذا الضلال إلا بسبب عدم التربية الحضارية.

ويقصد بالتربية الحضارية تلك الإجراءات والتدابير المتخذة من أجل بناء شخصية الإنسان العاقل المنفتح على الذات والعالم والثقافة بشكل حضاري ناضج، يرتقي على نحو متكامل بجوانبه الخلقية والوجدانية والعقلية والجسمانية، ويحرره من سيطرة الشهوات والطبيعة والانفعالات السلبية الهائجة، من أجل تمكينه من أداء دوره الريادي المنشود منه حيال مجتمعه، والعمل الواعي للارتقاء به نحو حياة أفضل تحقق إنسانية الإنسان ورقيه الوجداني والروحي والحياتي معا، باعتبار أن الإنسان -وفق هذا التصور- هو منطلق الحضارة وغايتها في آن واحد.

ويعد هذا النمط الحديث من التربية أهم الأنماط التربوية التي دارت حولها النظريات والفلسفات التربوية المعاصرة، وباتت أهميته على جانب كبير من الحساسية والخطورة في الحقل التربوي المعاصر للمجتمعات الإنسانية التي قطعت شوطا كبيرا في الرقي الحضاري والمعرفي، ذلك لأن هذا النمط يتأسس على جانبين متكاملين متداخلين يشكلان معا أساسا لا غنى عنه في بناء الشخصية الحضارية المنشودة للأبناء، تتمع بالتأصيل الأخلاقي والمعرفي والاجتماعي، بالإضافة إلى التوجه العقلاني العلمي المنتج، وهي الأسس التي علمتنا إياها شريعتنا الإسلامية السمحة، وهذان الجانبان هما:

١- الجانب الروحاني المعرفي، بما يشمله من جملة القيم الأخلاقية والوجدانية ومنظومة المعارف العقلية والمبادئ الفكرية التي تحرك الشخصية الإنسانية ضمن محيطها الحيوي تحريكا فعالا قائما على النفع المتبادل، وتضمن دوام التلاؤم الإيجابي مع الطبيعة المتجددة والمتغيرة للحضارة الإنسانية.

٢- الجانب السلوكي، بما يشمله من جملة السلوكات والتصرفات التي تحكم أسلوب الأداء الفاعل والمنتج للشخصية الإنسانية في محيطها الحيوي، ويحدد مجموعة الطرائق والأساليب العملية التي تضمن حسن التعامل مع الذات والعالم من منظور حضاري قائم على الغنى والنفع والسمو.

المراجع

أ. د. نبيل سليم علي - الطفولة ومسؤولية بناء المستقبل - كتاب الأمة ٩٢- مركز البحوث والدراسات الإسلامية - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر - ٢٠٠٣م.

٢- د. طه العلواني - أدب الاختلاف في الإسلام - قطر - ط٢ ١٤٠٧هـ.

٣- د. إسماعيل الفاروق - صياغة العلوم صياغة إسلامية - ط١ - جدة - ١٤٠٩هـ